

مقررات المجلس المركزي الفلسطيني: نظام البدائل لا يحيي الميت

بكاء الصوفي

وسام سباعنة*

لقد أجمعت معظم الفصائل على نقد مقررات المجلس المركزي، التي جاءت تعبيراً عن «حالة الانحطاط» التي تعانيها السلطة الفلسطينية. وكان تراشق الاتهامات بينهم زبداً ما أنتج الاجتماع الذي انعقد في ظل تفاقم الأزمة، ولم يجترح أي حلول للقضايا الأهم، ولا عرف كيف يوظف طاقات الشعب الفلسطيني، وبينهم اللاجئين في معركة حاسمة.

كان يكفي المجتمعين الإعلان عن انتفاضة شعبية شاملة، تُنخرط فيها كل الفصائل الفلسطينية، سواء تلك التي حضرت الاجتماع، وتحفظت على مقرراته، أو تلك التي لم تحضر مثل حماس والجهاد. نعم. انتفاضة شعبية شاملة ومتدرجة حتى العصيان الشامل، ليستفيق أهل الكهف من نومهم ويهبوا للانخراط في الكفاح الوطني، وإنقاذ القضية التي ضاعت في أروقة المفاوضات وأنفاق انقسامات الفصائل، لأن الشعب ملّ وعوداً لا تتحقق، واتفاقات مصالحة تراكم حتى لتماماً غرقة مهملات.

الكل يحكي عن دولة وحدودها المعلقة على حدود نكسة سبعة وستين، وهذا الكل يمضي في التفاوض على ما تبقى «منكم باللي بقبوا». المستوطنات تتكاثر كالفطر، جدار الفصل يزداد عنصرية، واللاجئون برسوم الأوروا الآيلة إلى التفتيت إذا ما استمر نهج الولايات المتحدة تصاعدياً، باتجاه أمن إسرائيل ونوياً ضد إيران وحلفائها في الشرق الأوسط.

وفي هذه الحالة يعني البقاء في منطقة التردد والانتظار خدمة المخططات التي نشكو، بل نصرخ منها. الحالة البديلة والتي تشكل إجابة منطقية ولازمة ومطلوبة هي ببساطة شديدة: انتفاضة شعبية شاملة. هل تستطيعون: نعم. هل ستحقق الانتفاضة النتائج التي نتحدث عنها: نعم. هل تريدون: هذا هو السؤال؟

ثمة ما ذكرنا بمقولة منسوبة للسيد المسيح عليه السلام: «مارتا مارتا... أنت تقومين بأشياء كثيرة، والمطلوب هو شيء واحد».

* مدير مؤسسة جفرا للإغاثة والتنمية الشبابية

تطبيقه، وخصوصاً ما يتصل بوقف التنسيق الأمني مع الاحتلال مرة وإلى الأبد. ويعرف ستة ملايين فلسطيني في الداخل وستة ملايين لاجئ في الشتات، حدود قدرة السلطة ومدى عزمها على تنفيذ القرارات. كما يعرفون إن كان الكلام جاداً، أو هو هزل في موضع الجد.

اكتفى البيان الختامي باجترار بيانات قديمة، منذ ما قبل أوسلو إلى ما تلاها من إخفاقات في توحيد الفصائل. وليس آخرها اتفاق المصالحة الذي جرى أخيراً في القاهرة. وجرى تطعيمه ببعض الجديد لخدمة المناسبة والتوقف عند المستجدات.

إن تعليق الاعتراف بدولة «إسرائيل» إلى حين اعترافها بدولة فلسطين، ووقف التنسيق الأمني مع العدو واعتبار اتفاقية أوسلو منتهية الصلاحية، وإدانة قرار الرئيس الأميركي دونالد ترامب اعتبار القدس عاصمة لإسرائيل، ونقل سفارة بلاده من تل أبيب إلى القدس والعمل على إسقاط القرار، والتشديد على ضرورة إلغاء قرار الكونغرس باعتبار منظمة التحرير منظمة إرهابية منذ عام 1987، واعتبار أن الولايات المتحدة الأميركية فقدت أهليتها لدور الوسيط الراعي لعملية السلام... قابلها بند موجز عن «حق الشعب الفلسطيني بممارسة كل أشكال النضال ضد الاحتلال وفقاً لأحكام القانون الدولي والاستمرار في تفعيل المقاومة الشعبية السلمية ودعمها وتعزيز قدراتها» وهو ما يحتاج إلى شرح طويل والية منظمة للعمل الثوري بمعناه الشعبي والكفاح المسلح ببعده الفصائلي، وليست الإشارة إليه بعبارة كلاسيكية تخدم ضرورات المرحلة.

في كل حال، ليس من الموضوعية في شيء رفض كل المخرجات عن اجتماع المركزي جملة وتفصيلاً، لكن المصلحة الوطنية الفلسطينية، قبل الموضوعية، تقتضي القول: إن ما هو مطلوب لم يحدث. والغرق في جملة قرارات بلا آلية عمل هو خطر مضاف. بينما قرار واحد مع آلية عمل فاعلة هو الذي يحدث الأثر الكبير.

منذ أن أعلن الرئيس الأميركي دونالد ترامب قراره بشأن الاعتراف بالقدس عاصمة لدولة الاحتلال، ونقل السفارة الأميركية إليها، كان من الطبيعي أن تتجه الأنظار إلى الهيئات الفلسطينية للوقوف على ردة فعلها، بالأحرى كيفية تصرفها بمواجهة هذا القرار الخطير مبنى ومعنى.

صحيح أن الشارع الفلسطيني، ومثله الشارع العربي والعالمي بنسب متفاوتة لم ينتظر من يدلّه على ما يفعل، لكن قراراً فلسطينياً مطلوباً من المستويات كافة، كان ليحدث فرقاً بالتأكيد، وخصوصاً أن حالتي التردد والانتظار كانتا عامتين، وشملتا هيئات السلطة والمنظمة والفصائل مجتمعة، حيث بدا كل طرف ينتظر الآخر، ويحمله المسؤولية عن التلكؤ والانتظار.

المهم، بعد طول انتظار عقد المجلس المركزي الفلسطيني اجتماعاً في دورته الثامنة والعشرين. وأصغى أغلب الفلسطينيين، على مدى أكثر من ساعتين، لخطاب طويل ألقاه رئيس السلطة الفلسطينية محمود عباس، فجاء درساً في التاريخ، على غرار الخطاب الذي ألقاه في اجتماع التعاون الإسلامي في اسطنبول، بعد أيام على قرار ترامب، ومن ثم عاد وألقاه أمام اجتماع دعا إليه الأزهر، والذي انتبه من غفلة طويلة، ليقرر تدريس منهاج عن مدينة القدس.

بدا الخطاب الطويل في اجتماع المجلس المركزي، كما في الاجتماع الذي سبقه، وكذلك الذي تلاه، محتشداً بموضوعات كثيرة. وهو، وإن أعجب البعض لجهة ما تخيلوه مراجعة يقوم بها الرئيس لكل خطه السياسي والفكري، وحفل وداع لحقبة سياسية اتسمت بالخذلان وأجهزت على تاريخ كامل من النضال، فمن شأن الخطابات الطويلة عادة أن لا توصلنا إلى ما هو مطلوب بالضبط وبكلمات قليلة، ومحددة أيضاً.

عليه، يمكن تفهم حالة الإحساس بالخيبة بعد الإعلان عن القرارات التي اتخذها المجلس المركزي، فبعضها مكرر، وبعضها الآخر لا نية جادة في

الاتفاق النووي الإيراني... ما له وما عليه

فضله بدير

خاضت الدولة الإيرانية في أواخر فترة الرئيس الأميركي السابق باراك أوباما معركة مفاوضات الاتفاق النووي. قضى وزيراً خارجية البلدين أياماً طويلة ليصلا إلى نتيجة قبل موعد تجديد العقوبات الذي كان سيفاً مصلاً على المفاوضات الإيراني.

اعتبر الرئيس حسن روحاني ووزير خارجيته محمد جواد ظريف أن هذا الاتفاق هو انتصار للأمة الإيرانية، إذ قامت الحملة الانتخابية الأولى لروحاني على التفاوض مع أميركا وتحقيق اتفاق نووي يُحرر أرسدة طهران المجمدة، ويرفع العقوبات لينعش بعدها الاقتصاد ويرتفع مستوى الدخل والمعيشة. والآن، ما هي النظرة النقدية لهذا الاتفاق؟

1. أنجز الإيرانيون الاتفاق مع إدارة راحلة، تحت الظن أن أوباما يريد إنجازاً تاريخياً بما أنه في آخر عام من ولايته الثانية، فإن هذا سيرحبه من الضغوط. ظن الإيرانيون أن من سيخلف أوباما سيمثل استمراراً لسياسته (هيلاري كلينتون أو غيرها). النتيجة أن الذي وصل إلى البيت الأبيض يمكنه التنصل من اتفاقات سلفه. وبالتالي بدلاً من أن يتحول الاتفاق مع أوباما إلى فرصة

4. حين بدأت إدارة ترامب بتسليط سيف احتمال رفع العقوبات على رقبة إدارة روحاني، أصبح همّ هذه الأخيرة الدفاع عن الاتفاق. وعاشت إدارته وهم أنها استطاعت فصل الأميركيين عن الأوروبيين. كمثل على ذلك، صرح مساعد وزير الخارجية في الشؤون السياسية، عباس عراقجي، للتلفزيون الإيراني بأن بلاده «استطاعت أن تفصل الحلفاء الأوروبيين عن أميركا وأن تفرض عزلة على الولايات المتحدة بشأن الاتفاق النووي». ولكن هذا الوهم لم يدم طويلاً، إذ إن الأوروبيين يعرفون مصالحهم، وهي مع أميركا (رغبة أو رهبة)، فبدل أن يضغطوا على أميركا - كما توهمت إدارة روحاني - بدأ الكلام عن أنهم سيضغطون على إيران، وذلك تحت عنوان «منع إدارة ترامب من إلغاء الاتفاق النووي». أي الآن على إيران أن تقدم المزيد من التنازلات (البرنامج الباليستي وغيره) ليتم الحفاظ على الاتفاق النووي.

وبالنظر إلى الوضع الاقتصادي الإيراني الداخلي حالياً، يظهر أن الاتفاق النووي الذي تستميت إدارة روحاني في الدفاع عنه كإنجاز شبه وحيد لها، لم ولن يرفع الضغوط السياسية والاقتصادية عن إيران.

إيران، تحوّل إلى تهديد دائم من ترامب (أو أي رئيس يمكن أن يأتي بعده) بنقضه... ليركض الإيرانيون ليدافعوا عن الاتفاق. فأصبح السيف المصلت ليس عدم الاتفاق، بل الاتفاق نفسه. تغيّر نوع السيف فقط.

2. بدل أن يحرر الاتفاق الأرسدة الإيرانية ويسمح بإدخالها إلى إيران، سمح لها باستعمال أرسدتها أو قسم منها لشراء منتجات غريبة وشحن هذه المنتجات إلى الداخل. وهكذا تستفيد الشركات الغربية بدل الإيرانية، ويتم تعميم النموذج الاستهلاكي وتسهيله للمجتمع الإيراني. هذه الأموال لا يمكن استثمارها في التنمية الداخلية وخلق الوظائف، بل ربما تؤثر سلباً على الشركات الإيرانية نتيجة الاستيراد.

3. حنث الأميركيون بمعظم وعودهم حيث رفعوا جزءاً من العقوبات، لكنهم أبقوا وفرضوا عقوبات على أشخاص ومؤسسات، بالإضافة إلى أن المصارف الأجنبية لا تجرؤ على أن تتعامل مع إيران أو أن تقوم بتحويلات واستثمارات ضخمة، رغم أن العقوبات على التحويلات رفعت على الورق. مثلاً، تحوّل فتح فرع مصرف ألماني إلى حدث مهم بحجم أن وزير خارجية إيران يبشّر به على حسابه على «تويتر».

يفاجئني الصديقُ والرفيقُ العزيزُ فضل النقيب، رقيبُ الحكيم منذ أيام «حركة القوميين العرب»، في حديثنا الدائم بالكثير ممّا لا أعرفه عن الحكيم، فيؤكدُ قناعتي بتلك الروح المتمرّدة، واللقاحنة، والمشاغية، والمتصوّفة، التي ميّزته من كلّ قادة الثورة الفلسطينية الآخرين. لكنه أكد قناعتي هذه أكثر لاحقاً في ما كتبه في «زمن الحكيم»:

«في إحدى الأمسيات، كنتُ في المكتب وحيداً، أراجع بعض موادّ الصّفحة العاشرة، وكان الحكيم في الغرفة الأخرى يكتب المقالة الافتتاحيّة للعدد الجديد من المجلة. دخلتُ عليه لأرى إذا ما كان قد انتهى من كتابة المقالة كي أرسلها إليّ المطبعة في طريق عودتي إلى البيت، فوجدته يمسح دموعه بأصابع يده. وعندما لاحظتُ أنني رأيتُ ذلك ابتسم وقال إن من عادته أن تدمع عيناه عندما يكون منفعلًا من شيء ما. ثم تابع الكتابة. وبعد يومين صدر عددُ الراي الجديد، وفيه افتتاحيّة عن المجازر التي ارتكبتها إسرائيل بحق الشعب الفلسطيني» (5).

كنتُ أقرأ «زمن الحكيم» وأراه يبكي، فاتخيلتُ بكاء محمد بن طباطبا لمشهد المرأة التي كانت تلتقط الرطب المتساقط من أحماله حتى تنقوت به، هي وبناتها. بكى ابنُ طباطبا حقاً لما رآه، ثم أبلغ تلك المرأة في تلك اللحظة بالذات بعزمه على الثورة. تقرأ عن بكاء الحكيم لمعاناة شعبه، فتتذكر قول المتمرّد المتصوّف عبد القادر الجيلي: «إبك له، وإبك منه، وإبك عليه»، فتعرف أنّها روحُ الحكيم الفريدة التي تحكي، وقلبه الصافي الذي يدمع؛ لكنك تعرف أن هذا البكاء أيضاً هو من تلك الحكمة الشرقيّة الثوريّة المشاغية: «من يزدنّ علماً يزدنّ وجعاً»، كما يخبرنا أبو الدرداء، في تكرار لما جاء في سفر الجامعة في الكتاب المقدّس: «في كثرة الحكمة كثرة الغم، والذي يزدنّ علماً يزدنّ حزناً».

«كان في أحاديثه السياسية دوماً شيئاً أكبر من السياسيّة»، كتب فضل النقيب عن جورج حبش، فأكد قناعتي ورؤيتي بانتمسابه إلى خط أنبياء الثورة مع المسيح وعلي ومزدك وأبو ذر وإبراهيم وحمدان والحلاج. فبرغم كون أقطاب التصوف ومشيعة الشرق كلهم بلا إستثناء تقريباً من المثقفين الفريدين في كل عصر، وبرغم مقارعتهم للسلطة ومؤسساتها بلا ملل وبلا وجل، لم تكن رسالتهم ثقافية معرفية أو سياسية فقط، بل كانت إجتماعية أساساً يفترض الصمود عليها أن يمتلك الثائر روح الحلاج وقلب إبراهيم بن أدهم وعقل محي الدين بن عربي. هذه عندي سر إستثنائية الحكيم وفرادته التي ربما لن نرى في فلسطين مثلها بعده أبداً.

سلام له وسلام عليه

حين كتبتُ عن الحكيم في ذكرى رحيله قبل سنين، وحدث نفسي أقتبس، وبلا قصد مسبق أو تعمّد، الإمامَ عليّاً في وصف مالك الأشرن: «لا أرى مثله بعده أبداً» (6). فمثل كل رفاق الأرض المحتلة الذين لم تسمح لهم ظروفهم بلقاء الحكيم، كان الرفيق جورج حبش بالنسبة إلينا أكثر بكثير من مجرد أمين عام، أو قائدٍ ثوريّ فدّ، أو حتى زعيمٍ قوميّ استثنائيّ، كان، كذلك، النبيّ الذي يرشدنا في مجاهل الحقّ والخلق ومآهات حياتنا في كل يوم، وكل أمر. كان نبينا الذي كنّا نظنّ - لظاهرة روحه المتمرّدة - أنه يوشك أن يتذاهن مع السماء ليقودنا إلى الخلاص. فسلاً له، وسلاً عليه، و«سلاً على أهل الحقّ أينما كانوا، وبأيّ لسان نطقوا، وسلاً على الخلق وأصدقاء الخلق، وسلاً على الماضين والآتين من ضنائن الله وأوتاد الأرض، الذين يُقومون زيغها ويحفظونها من الفساد» (7).

(ملاحظة: نسخة أقصر من هذا النص نشرت في مجلة الآداب)

المراجع

- (1) ماسينيون، أيام الحلاج، ص 503.
- (2) الثوريون لا يموتون أبداً، ص 289.
- (3) الإسلام المعاصر، ص 9.
- (4) الثوريون، ص 253.
- (5) <http://alhakimhabash.blogspot.com/html/2/04/2012/com>
- (6) <http://www.al-akhbar.com/>
- (7) 199303/node هادي العلوي، مدارات صوفيّة.

* كاتب عربي